المحاضرة السادسة/ المقاطعة الإجتماعية والإقتصادية لبني هاشم / عصر الرسالة والخلافة الراشدة/ إعداد/ الأستاذ الدكتور رزاق حسين عبد معين

في الواقع أن مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب، أمرًا غاية في الأهمية؛ لطول مدتها أولاً، ولأنها حلقة من حلقات الصراع بين الطرفين، إذ لم تأتي هذه الخطوة فجأةً ومن دون مقدمات، بل جاءت بعد عجز قريش عن قتل النبي، وإرغام عشيرته وأصحابه على ترك الإسلام، والتخلي عنه؛ لذا أرادت القبيلة المذكورة من خلال هذا العمل كسر إرادة المعارضين ثانيًا. وعليه قررت قريش أن تلجأ إلى خطوة أخرى علّها تضغط إجتماعيًا وإقتصاديًا على النبي وعشيرته وأصحابه بالذات الضعفاء منهم؛ لترغم النبي- تحت تأثير أذى قومه وأصحابه- على ترك الدعوة، وتجبرهم على التخلي عنه لذات الأسباب، إذ إن الضغط الجمعي بالذات على البسطاء يمكن أن يؤلم قلب النبي، ويجعل من الصعوبة بمكان تحديد مسؤولية فرد أو شخص بحد ذاته؛ وبالتالي منع بني عبد المطلب أو بني هاشم من أخذ الثأر من أحد إذا ما مات النبي أو أحد أصحابه، وهي ذات الفكرة التي إستخدمتها قريش لاحقًا عندما قرر النبي مغادرة مكة مهاجرًا إلى المدينة المنورة. ثم لا ننسى إن محاولة تجاهل الفروع القرشية الأدنى للأعلى، يشعر الفرع الأعلى بالنبذ داخليًا أمام باقي فروع قبيلة قريش وقبائل مكة الأخرى، وخارجيًا أمام باقي قبائل شبه الجزيرة العربية، أو حتى دول الجوار التي تملك علاقات رسمية مع قريش أساسها هو التعامل الإقتصادي، بمعنى أن إضعافهم للحط من مكانتهم، وقدرتهم على دعم النبي.

وليس ثمة إتفاق على تاريخ هذا الحدث فبعض المؤرخين يرى أن حصل قبل الهجرة إلى الحبشة، ذلك عندما شعرت عشيرة النبي بالخطر المحدق على حياته، وحياة باقي أتباعه من الهاشميين أو غيرهم من البسطاء، فأدخلوه في شِعِب أبي طالب" **وهي أشبه ما يكون بالحي السكني في مفهومنا الآن**"، وهنا أمر أتباعه غير القادرين على البقاء بالهجرة؛ ليكونوا بمأمن مثله. وقيل بأن المقاطعة حصلت بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة وعجز قريش التام"**على وفق الظروف الطبيعية**" عن إستعادة المهاجرين، ويبدو أن هذا الرأي هو الأكثر صوابًا، بلحاظ النظر للنص الآتي:" **كبر الأمر عليهم، وغضبوا على رسول الله(ﷺ) وأصحابه، وأجمعوا على قتل رسول**

الله(ﷺ) وكتبوا كتابًا على بني هاشم ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم،... وصاروا بني هاشم في شِعِب أبي طالب ليلة هلال محرم سنة سبع من حين تنبئ رسول الله(ﷺ)".

وعليه فإن هذا الرأي هو الصائب أي أن المقاطعة حدثت بعد هجرة المسلمين للحبشة من أجل أن تفرض قريش مرادها على النبي. لكن لا بّد من القول أن ما أشير لدوري أبي لهب والعباس أبني عبد المطلب في دعم المُحاصرين غير صحيح بالمرة. فبالنسبة لأبي لهب فقد بولغ كثيرًا في نصرته للنبي، مستغلين إستشراء العصبية القبلية؛ الأمر الذي يجعل من السهولة عليهم فبركة هذه الرواية، إذ عندها تكون الرواية مقبولة، ولعل من الصواب القول بأنه كان من ألدّ أعداء النبي والإسلام، بدليل نزول سورة في القرآن ذمته وزوجته(**أم جميل أروى بنت حرب بن أمية بن عبد شمس**)، وهي قوله تعالى في سورة المسد: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5)}**.

أما بخصوص العباس فثمة مبالغة كبيرة في الروايات التي أطرّت لنصرته للنبي الكريم، وفي الواقع أنها روايات عباسية بإمتياز دُبجت عند قيام الدولة العباسية؛ من أجل أثبات نصرته للإسلام والنبي، تأصيلاً مكذوبًا منهم في إدعائهم بإمامتهم المدعاة من غير وجه حق. والمضحك في الأكاذيب ذات الصلة بالرجلين أنها تتجاوز عواقب هذه النُصرة على أرستقراطية قريش المعارضة بشدة للنبي، وتجعل إثنين من كبارها إنصارها ناصرين مزعومين له، الذي جاء بالإسلام ليخلص الناس من ظلمهم، وليقوض إركان أقوى أمبرطورية مالية ظالمة في شبه جزيرة العرب.

إن دخول آل أبي طالب والهاشميين عمومًا بقيادة أبو طالب إلى الشِعِب إنما كان من أجل مقابلة التهديد القرشي بتحدي أقوى منه، إذ إن الإنصياع لمطالب قريش أمر مخالف لثوابت إيمان أبا طالب فهو من سادة الموحدين في عصره. فذهب بني هاشم والمطلب **(إلاّ أبا لهب)** إلى داخل الشِعِب حتى أولئك المقيمين خارجه، ليدخلوا مرحلة جديدة في المواجهة مع قريش التي أرادت أن تسمع أصوات أطفالهم ونسائهم يبكون من الجوع!.

وفي الواقع أن حصار الشِعِب كان شديدًا على أقرباء النبي وعشيرته، فقد قيل بأن القرشيين كانوا يسمعون أصوات الأطفال يبكون من شدة الجوع فعلاً، ولعل السبب في ذلك، هو أن القرشيون كانوا قد وضعوا رقباء على أقرباء النبي؛ لمنعهم من شراء أي شيء ليقتاتوا عليه، إذ عَمَدَ أثرياءهم على منع المُحاصرين من شراء الغذاء لهم، فقد كانوا يتلقوّن التجار القادمين إلى مكة، ويزيدون عليهم الأسعار بشكل خيالي؛ مستغلين قدرتهم المالية العالية، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن أقرباء النبي من الحصول على ما يعيلهم بشق الأنفس، بعد أن إتصلوا ببعض القبائل العربية الوافدة إلى مكة في الأشهر الحرم.

وفي طول مدة الحصار عمل أبو طالب على حماية النبي بأي ثمن كان؛ لذا كان عندما ينام النبي في فراشه، يبقى هو يقظًا فإذا ما نامت العيون وأرخى الليل سدولة، قام وأتى بالإمام علي(عليه السلام) لينام مكانه، فكان مستعدًا للتضحية بإبنه لحماية النبي، والدفاع عنه وعن مشروعه المبارك. ولم يكن هذا الدور هو الوحيد الذي أداه الإمام علي، فقد خرج سرًا، وفي الخفاء ليجلب الطعام للمُحاصرين، إذ قيل بأنهم إضطروا تحت وطأة الحصار إلى أكل الحشائش لعدّة أيام.

وقيل أن هذا الوضع لم يكن ليرضي كل قريش، فثمة معارضون لما آلت إليه الأمور، طبعًا بحكم الروابط القبلية. وفي إحدى المناسبات أرسل أبن أخٍ السيدة خديجة ويدعى حكيم بن حُزام، طعامًا مع رجل لعمته المذكورة، فلقيه أبا جهل، وأعترض على هذا العمل، فرّد عليه أبن عمٍ آخر لها يدعى أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، وضربه بساق بعير وشج رأسه.

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي مرّت على النبي وأصحابه سواء المهاجرين أم المُحاصرين معه، أو الذين كانوا خارج الشِعِب والذين نالهم من قريش شتى الوان العذاب، إلاّ أنه أستمر بالدعوة ولم يخضع لضغوطم الشديدة. وبدا لقريش أن الحصار لم يأتي بثمار طيبة لهم؛ لذا قرروا فتح صفحة جديدة قوامها التشهير بالنبي، ففي إحدى المرات كان جالسًا مع الوليد بن المُغيرة ولفيف من المشركين في مساجلة عقدية، فجاء النضر بن الحارث وعرّض بالنبي وأساء له كثيرًا،

فكلمّه النبي وأفحمه، ثم تلا عليه وعليهم قوله(ﷺ): **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ}.**

ولم يكتفِ هؤلاء بالسجال، بل دخلوا في مساومة مع النبي، وعرضوا عليه أن يعبدوا معًا عبادة مشتركة بينهم، فقالوا له: " **يا محمد هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في الأمر، فإن يكن الذي نحن عليه الحق فقد أخذت بحظك منه، وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد أخذنا بحظنا منه، فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.** وبالطبع أن هذا الطلب إنما دل وبشكل واضح على طريقة تفكير هؤلاء، فبحسب ظنهم أن تقاسم العبادة مع النبي سيبقي على مكانتهم الإجتماعية والإقتصادية، فضلاً عن زعزعة المسلمين الضعفاء، إذ دل طلبهم هذا على رغبة واضحة للتشويش على أفكار الناس ومعتقداتهم، بالذات، ونحن نتكلم بعد سبع أو ثمان سنوات من الدعوة وقد لاقى المسلمين الضعفاء ما لا قوه من تنكيل، ومصادرة أموال وأستباحة أعراض من لدن الأرستقراطية القرشية.

وثمة كذبة وردت في الكتاب وفحواها أن النبي طمع في إسلام الوليد بن المغيرة المخزومي، المكنى بأبي عبد شمس، وهو والد خالد بن الوليد، وكان من المستهزئين بالنبي، وعندما سمع القرآن أحس بالقشعريرة في بدنه، لكنه أخذته العزة بالآثم وأبى الإسلام، فنزلت فيه آية قرآنية كريمة تذمه وهي قوله(تعالى):**{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}.** وفي الحقيقة أن النبي أراد أن يسلم الرجل المذكور؛ لينقذ نفسه من غضب الله لا أكثر وليس لحاجته له، فهو من كبار أرستقراطية قريش، فكان له عشرة أولاد، ولكل واحد منهم عشرة عبيد ومال وفير.وثمة إساءة للنبي تتمثل في إمتعاضه – وهو يدعو الوليد بن المغيرة– من طلب عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وهو أبن خال السيدة خديجة، وقد ألحّ عليه من أجل سماع القرآن، فعبس وتولى عنه، أي صد لجهة أخرى، وهذا كذب محض، فالنبي أكثر خلق الله أدبًا.

ولم يذعن زعماء قريش للحق ويستسلموا، بل عمدوا إلى مساومة النبي، حتى قيل أن عتبة وشيبة إبني ربيعة، وأبا سفيان صخر بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل عمرو بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه أبني الحجاج، ذهبوا إلى النبي وعرضوا عليه مال وفير والسيادة على قريش، مقابل ترك الدعوة إلى الإسلام. ولم يكتفوا بذلك إذ إتهموه بأنه يرى الجن وأتضح ذلك حينما قالوا له: "**وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئي تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك**". وكل ما مرّ من أجل التشويش على الدعوة الإسلامية، فعرض المال والوجاهة على النبي، وإتهامه بالجنون، ممكن أن يركزّ شكًا لدى الناس بمشروعية الدعوة، فهذه الأمور مقبولة كثيرًا في مكة، فالمال يحظى بالمقام الأول، فضلاً عن تهمة رؤيته للجن أيضًا أمر مستساغ عند عوام الناس وخواصهم.

وفي الحقيقة، لقد إستمرت المقاطعة لثلاث سنوات، وإنتهت بعد أن أخبر النبي عمه أبا طالب بأن الأرضة أكلت نص العهد الذي وضعته قريش في جوف الكعبة، ولم يبقى منه سوى"**بأسمك اللهم**". وبناءً على كلام النبي ذهب عمه إلى المشركين، فظنوا أن الجوع أذلهم وأخرجهم، لكنه أخبرهم بما قاله النبي له، فأشترط عليهم أن يكفوا ظلمهم عنهم إن كان كلام النبي صحيح، وإن كان العكس "**وحاشاه**" فإنه سيسلمه لهم ليقتلوه، ولما أخرجوا العهد الموجود في جوف الكعبة رؤوا الكتاب قد أكلته الأرضة كما قال لهم أبا طالب، لكنهم وبدل أن يسلموا كما أتفقوا، إزدادوا عنادًا.

ولم يمرر أبا طالب الأمر لقريش فعندما ثبت صدق النبي أمام الجميع قال لهم: " **أتبين لكم: أينا أولى بالسحر والكهانة؟**"، وهذا الأمر سبب بدخول الكثير من الناس إلى الإسلام. وعلى أيّة حال لما رأى بعض رجالات قريش فشل إسلوبهم السابق القائم على سياسة التجويع والقهر، إنبروا لنقض الصحيفة وتمزيقها وابطلوا مفعولها وأخرجوا الهاشميين من الحصار الظالم غير آبهين لمعارضة أبا جهل، منهم هشام بن عمرو بن ربيعة، وزهير بن أمية بن المغيرة، والمطعم بن عدي، وأبا البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وكلهم له صلة رحم ببني هاشم والمطلب.